الجزء الخامس – الخطبة رقم ١٦

مواقف في الفتن – ٦

معاشر المسلمين: واستكمالاً لمواقف العظة والاعتبار في النوازل يقال: إن من مواقف الفتن والنوازل أن يعتبر المسلمون من الدروس والعبر المتعلقة بما سبق من النوازل عموماً وفي نازلتهم خصوصاً؛ فينظروا إلى ذلك نظرة ترو وإمعان حسب العلم الشرعي وسؤال أهله.

وذلكم معاشر المسلمين لأن النظر فيما سبق من النوازل ودراية أسبابها ونتائجها يعود علينا بفوائد كثيرة منها: معرفة مكامن النقص والتقصير، سواء كانت عامة أو خاصة، وذلك لاجتنابها ومعرفة مواقع الصواب للزومها، وبكل حال فالنظر فيما سبق من النوازل يكون بعد عون الله تعالى منظاراً لما يحدث من لواحق النوازل والحوادث.

معاشر المسلمين: ولعظيم الاعتبار والنظر فيما سلف من النوازل أمر الله تعالى عباده بذلك، بل تكاثرت النصوص في هذا الشأن، فتارة فيها الحث على ذلك للحذر مما وقعوا فيه، وتارة لبيان الآثار الوخيمة في الغفلة عن الأحداث الماضية وعدم الاعتبار بما كان فيها، فمن باب الحث على السير والنظر في الحوادث السالفة والاعتبار بما كان فيها، قوله تعالى:"قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين" "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين" "فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين". ومن باب أن الغفلة عن الأحداث قد تورّث الوقوع في ما وقعوا فيه أو بعض ما وقعوا فيه "أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون" " أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق".

معاشر المسلمين: ومن خلال تلك النازلة العظيمة الكائنة في العراق، وفي تلك الأيام المتلاحقة حدث عبرٌ وعظات لمن كان له قلب أو بصيرة وإمعان.

معاشر المسلمين: إن من أعظم مواطن العظة والاعتبار في تلك النازلة قوة اليقين وزيادة البصيرة بأن الأمر كله لله وأن القوة كلها لله، وأن ما حدث وكان لم يكن إلا بمشيئة الله تعالى " وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين" " وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيما" فالأمر بيد الله والملك ملك الله يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه وهو القوي العزيز.

معاشر المسلمين: ومما يتعلق بالعبر والاتعاظ ما يتعلق بحاكم العراق؛ كان حاكم العراق يعيش حياة مليئة بأنواع الترف والملذات، وكيف لا يكون ذلك وفي يديه خزائن بلد غني بثرواته واقتصاده على رغم حصاره؛ كان ذلك الحاكم يأمر فلا يعصى وينهى فلا يراجع تهابه حاشيته، وأخاف رعيته؛ فكانوا يتسابقون لمدحه والغلو فيه طمعاً فيما عنده أو خوفاً من بطشه وغضبه؛ كانت قصوره كثيرة العدد متفرقة المكان متنوعة البنيان؛ فيها نوادر التحف والفرش والآثار كان حراسه والقائمون على أمنه يعدون بالمئات بل بالآلاف؛ قد بسط نفوذه وجبروته في جميع أرجاء دولته نصبت له مئات التماثيل وعلقت له آلاف الصور حتى أصبح رسمه وشخصه ماثلاً في ذهن الصغير والكبير والذكر والأنثى والعدو والصديق كان خدمه والقائمون على خاصة أمره يتسابقون إلى خدمته والتفاني في التذلل له إلى درجة التقديس والتمجيد والتعظيم.

معاشر المسلمين: وبعد ذلك العز والجبروت والقوة والتمكين أصبح أذل ذليل بين شعبه أُحتل بلده وهدمت قصوره وتفرق جمعه؛ فبعد أن كانت أصنامه وصوره وتماثيله ترتفع فوق هامات الرؤوس أصبحت موطئاً للنعال ومكاناً للبصاق واللعان؛ فلا إله إلا الله (يعز من يشاء ويذل من يشاء) ولا إله إلا الله (يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء)

ما بين طرفة عين وانتباهها يغير الله من حال إلى حال .

معاشر المسلمين: ذكر التاريخ أن المسلمين لما فتحوا الشام وابتهجوا بذلك بكى أبو الدرداء رضي الله عنه؛ فقيل له: يا أبا الدرداء أتبكي في أعز الله تعالى فيه الإسلام وأهله، فقال رضي الله تعالى عنه: إنما أبكي لهوان الخلق على الله إذا هم عصوه.

معاشر المسلمين: ومن مواطن العظة والاعتبار في تلك النازلة أن القوة لله جميعاً، وأن من آثار قوة الله تعالى تسليط الظالمين على الظالمين فمن ظلم واعتدى ابتلى بمثل ذنبه وجرمه حكمةً من الله وعدلا ولا يظلم ربك أحداً

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بأظلم

معاشر المسلمين: ومن مواطن العظة ولاعتبار في تلك النازلة الحذر من دعاء المظلوم، فذلك الطاغية قد يتّم أطفالا ورمّل نساء وأدمى قلوبا عصرها الألم كمدا وقهرا؛ فرفعت أكف الضراعة والتظلم والتذلل بين يدي الله القوي العزيز فكان عاقبة الظالم شديدة في الدنيا فكيف بمن تعدى ظلمه وزاد بطشه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم" أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما.

معاشر المسلمين: ألا فاحذروا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ويتأكد هذا فيمن جعل الله له ولاية على عدد من الناس فكيف بمن ولاه لله على مجتمع من مجتمعات المسلمين، فالأمر في حقه أكبر وأعظم وأوجب، فالحذر الحذر من دعوات المظلوم؛ فكم من دعوة مظلوم فرقت بين المرء وزوجه، وكم من دعوة مظلوم فرقت بين الوالد وولده، وكم من دعوة مظلوم فرقت مجتمعات وهدمت لذات فكيف إذا كان المظلوم جمعاً من الناس بل كيف إذا كانوا مجتمعاً واحداً. كان البرامكة أهل مجد وسؤود وعز ورفعة في خلافة الرشيد فلما كانت نكبتهم المشهورة فقتلوا وسجنوا وصودرت أموالهم تهوّل بعض البرامكة من عظيم الفاجعة، فقال يخاطب أباه: يا أبتاه ما صيرنا إلى ما نرى ؟ فقال يا بني: دعوة المظلوم سرت بليل فنمنا عنها وعين الله لم تنم.

معاشر المسلمين: ومن مواطن العظة والاعتبار في تلك النازلة استشعار نعمة الأمن والأمان على الدين والعرض والمال.

معاشر المسلمين: رأى الجميع وسمع ما حدث في العراق لمدة ساعات محدودة عندما اختل أمنهم وغابت سلطاته فما الذي حدث؟ أزهقت أرواح وقامت ثورات ونعرات، وسلبت أموال وممتلكات، وهتكت أعراض، فاضطربت أمور الناس وأصابهم من الفزع والخوف ما الله به عليم فقل لي بربك ما شعور والد البنات إذا عرف أن عرضه مشاع للغاصبين ولا رادع لهم؟ وقل لي بربك ما شعور صاحب المال الذي تعب وكدح في جمعه طيلة عمره وفي لحظات من أمره يذهب ماله أمام عينيه ويضيع جهده بين يديه؟ بل قل لي بربك ما شعور صاحب التوحيد والسنة إذا تسلط عليه من يتدين ببغضه ويتقرب بقتله، فتفكروا معاشر المسلمين وأعيدوا النظر مرات وكرات في مصاب الناس عند غياب أمنهم ساعات فكيف بمن غاب أمنهم سنوات.

معاشر المسلمين: كان من فقه إبراهيم عليه السلام في دعائه أنه قدم سؤال الأمن قبل سؤال الزاد فقال:"رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات" قال بعض أهل العلم:(إن طلب الأمن مقدم على طلب الغذاء، لأن الخائف لا يتلذذ بالغذاء ولا يهنأ بالنوم ولا يطمئن في مكان ولهذا دعا إبراهيم الخليل عليه السلام بتوفير الأمن قبل توفير الرزق). الخطب المنبرية للفوزان ٣/٦١

معاشر المسلمين: ومن مواطن العظة والاعتبار في تلك النازلة الحذر من المسارعة في السير خلف الشعارات المضللة والانخداع ببريقها دون تحقيق النظر فيمن رفعها ودعا إليها، وينطبق هذا بحذافيره على حاكم العراق فإذا ركب الفلك وطافت به الأمواج دعا إلى حمية الإسلام وعزيمة الجهاد فإذا نجا من الغرق عاد إلى بطشه وغدره.

معاشر المسلمين: وعوداً على بدء إن خطورة التأثر بالشعارات تكمن في قوة المتأثر بها بل المخدوع بها وتزداد خطورته إذا وظف النصوص الشرعية تأييداً لها

وإنكاراً على من عارضها دون التبصر في تلك الشعارات وبعد النظر عن مقاصد من رفعها.

معاشر المسلمين: وبالمثال يتضح المقال؛ فإن مما لا شك فيه أن حاكم العراق قد نجح في تأجيج العواطف نحوه، وزاد نجاحه في اكتسابه مظهر القائد المسلم بل المؤمن القائم في وجوه دول الكفر.

معاشر المسلمين: ونجاحه ذلك عائد إلى أسباب كثيرة منها: قوة دعايته وإعلامه، وكذا قوة أبواقه القائمة على الكذب والدجل، ومن آخر أبواقه مسيلمة الصحاف، ومنها: بغض المسلمين لجبروت دول الكفر وغلبة عواطفهم مما أفقد بعضهم أو كثيراً منهم نظر البصيرة، وهذا دليل على قوة عاطفة كثير من المسلمين وهي دليل خير وأمل إلا أن ذلك لا يشفع في تجاوز الأخطاء وعدم بيانها للحذر والتحذير منها.

معاشر المسلمين: من المعلوم قطعاً أن حاكم العراق من رؤوس إن لم يكنى الرأس الأكبر في حزب البعث العربي الاشتراكي، فما حزب البعث وما أساسه وأهدافه؟

معاشر المسلمين: وجواباً على هذا السؤال إجمالاً يقال: نشأ هذا الحزب قرابة العام الثالث والستين بعد المئة الثالثة والألف أي قبل إحدى وستين عاماً، ويقوم هذا الحزب على مبادئ كثيرة يقوم أغلبها على تقديس القومية العربية، وتكمن خطورة هذا الحزب في أن كلمة الإيمان بالله تعالى على عمومها لم ترد في صلب دستور ذلك الحزب ناهيكم عن كلمة الدين، وتؤكد مبادئ الحزب على أن رابطته هي القومية العربية، وكل رابطة سواها فهي محظورة وبخاصة الرابطة الدينية، وفي سياسة الحزب الخارجية يرفضون الاعتراف بأية صلة مع دول العالم الإسلامي من حيث عقيدته، وهذا يعني تجاهلهم التام للإسلام على الصعيدين الداخلي والخارجي، ومن وصايا مؤتمرات الحزب: التصريح بعلمانية الحزب، وبكل حال فخلاصة هذا الحزب

فيما يتعلق بالإسلام هو إغفال وتهميش الإسلام عقيدة وحضارة ومجداً بل وحظر الكلام فيه.

معاشر المسلمين: إذا كانت هذه بعض أهداف ذلك الحزب فقل لي بربك أي خير يرجى من دين أو دنيا أو آخرة بل والله فساد الدين والدنيا والآخرة.

معاشر المسلمين: لئن كان الصليبيون الذين تسلطوا على البعثيين كفاراً أصليين فإن البعثيين كفاراً مرتدون، والكفار المرتدون شر من الكفار الأصليين؛ فالأصليون تؤكل ذبائحهم، وتنكح نساؤهم بخلاف الكفار المرتدين، فانظروا كيف جر هؤلاء البعثيون الدمار والهلاك فأفسدوا البلاد وأهلكوا العباد.

معاشر المسلمين: وإن مما ينبغي أن يعلم ليحذر من التلازم منه؛ أن عقيدة حزب البعث يمثلها نظامها الحاكم ومن سار في ركبهم طائعاً مختاراً، والمحذور هنا اعتقاد تلازم دائم من نسبة عقيدة الشعب إلى عقيدة نظامه؛ ففي العراق أهل سنة موحدون مستضعفون.

اللهم يا ذا الأسماء الحسنى ويا ذا الصفات العلى، اللهم كما طهرت أرض العراق من حكومة البعثيين فطهرها من حكومة الصليبيين، وجنبها حكومة شرازم الرفض، اللهم ارزقهم حكومة تقيم التوحيد والسنة، وتحارب الشرك والبدعة، اللهم وفق حكامنا وحكام المسلمين لما فيه صلاح العباد والبلاد، اللهم وفق إمامنا لما تحب وترضى، وخذ بناصيته للبر والتقوى، اللهم اجعل رأيه سديداً وقوله رشيداً.